المفارقة السردية بين الرحلة القنفذية و الرحلة الناصرية

The paradox narrative structure between the trekking trip and the Nasiriyah trip

الطالبة شيكر المزوار نضيرة

إشراف : الدكتورة حطري سمية

مخبر تجديد البحث في تعليمية اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية

جامعة جيلالي اليابس –سيدي بلعباس (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2018-05-05 تاريخ القبول: 2018-12-21

مقدمة

يجد القارئ للرّحلة أنّ السّمة السردية غالبة على المتون، فالهدف في الظّاهر هو التّواصل فقط إلاّ أنّ ضمن هذه الصيغة الإخبارية الشاملة ترد صيغ أخرى أدبية هدفها إنتاج معان تتوخى من القارئ أن يشارك فيها، ويتجلّى ذلك في التّأملات والقصائد وبعض الرّسائل والخطابات التّوجيهية الآمرة أو النّاهية، التي يقصد منها التّأثير والحثّ على الاستجابة بالفعل أو الترك.

وهذه الأقسام وإن كانت عامة في كلّ النّصوص القصيرة والطويلة، فإنّها في الأغلب الأعم تتميز وتنفرد في خطابات مستقلة، أمّا في الرّحلات فتأتي متجاورة، متكاملة لتكون النّص الرّحلي.

وطبيعة السّفر في الرّحلة ليست مبنية على عقدة بقدر ما هي مبنية على التّرحال الشامل للإياب والوصول ثم العودة، وضمن هذه المفاصل الكبرى تنشأ حكايات ذات عقد، وأخبار ذات فائدة، وآراء لا تخلو من صواب وكلّها مشمولة بسمة المكان والزمان أو الموضوع وتؤدي وظيفة ما داخل السّرد، ومن الواضح أنّ الرّحلة شكل منفتح، ومرتبط بالحركة والتّنقل، ولذا تعدّدت أحداثها وموضوعاتها.ومن بين الرحلات التي الفتت انتباها النقاد رحلة الانس الفقير و العز الحقير لابن قنفذ القسنطيني و التي جرت احداثها في عهد الزياني و الرحلة المشهورة لصاحبها ابو راس الناصري وهي بعنوان فتح الاله ومنته وهي من مدونات العهد العثماني . وسنحاول ان نجري مقارنة بين هتين الرحلتين من ناحية البنية السردية

في رحاب الرّحلة القنفذية:

بدأ " **ابن قنفذ** " بزيارته الشّيخ الصّالح " **أبي العباس أحمد بن العاشر الأندلسي** " بمدينة " **سلا** " بالمغرب الأقصى وذلك سنة 763هـ، حيث قال هذا الأخير أنّ الكرامة لا تنقطع وذلك لما حدث عند قبر " **أبي عباس السّبتي** " المدفون بـ " **مراكش** " وما ظهر عنده من بركات في قضاء الحاجة، ويسرد لنا " **ابن قنفذ** " ذلك يقول أنّ الشّيخ الصّالح " **أبو عباس أحمد بن العاشر الأندلسي** " عند لقاءه معه أنّه ثمة سرقة يهوديا في اللّيل لأنّ دابته كانت عرجاء فلم يستطع لحاقهم، فجلس أمام قبر " **السبتي** " وناداه لأن يفرج كربته، فإذا بالسّارقين يصيبهم سبب ما فتوقفوا وإذا بدابته يخف عرجها وتلاحق النّاس وأرجعوا ما تمت سرقته[2].

وبعدما توقف " **ابن قنفذ القسنطيني** " على قبر " **السبتي** " قال أنّ قبره فيه بركات وأنوار وأنّه آية في المناظرة قائلا:

رَفَعُوا الأَنَامِلَ لِلْصَّلَاةِ وَكَبَّرُوا فَبَدَا الخُشُوعُ بِخَوْفِهِمْ يَتَرَنَّمُ[3].

ثم ينتقل بنا " **ابن قنفذ** " للحديث عن " **ابن العاشر** " وأنّه فريدا في الورع كثير النّفور من النّاس وخصوصا أصحاب الولاية في الأعمال وجعل علوم الدّين بين أعينه.

وكان أوّل لقاء بين " **ابن قنفذ** " و " **ابن العاشر**" هو نفور " **ابن العاشر** " من " **ابن قنفذ** "، فقام " **ابن قنفذ** " بيده وهزه فتبسّم " **ابن العاشر** "، فطلب " **ابن قنفذ** " الطعام منه فأخرج له تين يابس، فوضع على يده اليمنى وغطّاه باليد اليسرى وقدّمه لـ " **ابن قنفذ** " فعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه في معاملته لـ " **ابن قنفذ** " لأنّ ملك **المغرب** سنة 757هـ حاول اللّقاء معه لكنّه لم يستطع وبقيت حالة " **ابن العاشر** " وبركاته إلى أن توفي سنة 765هـ دفن بمدينة " **سلا** " وقام " **ابن قنفذ** " بزيارة قبره[4] .

وكان لقاء " **ابن قنفذ** " مع " ابن العاشر " بمثابة نشوة غمرت قلب " **ابن قنفذ** " حيث أنّ الظّاهر والباطن من خلال هذا اللّقاء تأثر " **ابن قنفذ** " بـ " **ابن العاشر** " وبتصرفه.

ثم رجع إلى إخبارنا عن سبب كتابه هذا الذي هو الشيخ العارف المحقق الواحد القطب " **أبو مدين** " وقام بذكر سيرته الذّاتية حين أخبرنا أنّه كان زاهدا في الدّنيا، عارفا بالله تعالى، لما توفي أبوه كفله إخوته يرعى الماشية لأنّه أصغرهم سنا، وكان " **أبو مدين** " عند طريقه للرّعي يجد جماعة يصلّون ويقرؤون القرآن فيتدنّى منهم ويعجبه ذلك، فأخبر إخوته أنّه سيتفرغ لمثل هذه الأمور، فمنعه أخوه وحاول أن يضربه بالسّيف فتلقى " **أبو مدين** " الضّربة بعود كان بيده فتكسّر السّيف فتعجّب أخوه وقال له: **يا أخي اذهب حيث شئت**، فسار " **أبو مدين** " وتوجّه إلى البحر نحو " **طنجة** " حيث احترف مهنة الصّيد ثم تفطّن إلى أنّ خروجه كان لعبادة الله والعلم فتوجّه إلى " **فاس** " وتعلّم على يد الشّيخ " **أبو الحسن علي بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم** " حيث ولد هذا الأخير بـ " **فاس** " ونشأ بها وكان من كبار الفقهاء، وكان زاهدا في الدّنيا سلك سبيل أهل التّصوف ذا كرامات توفي بـ " **فاس** " 595هـ، حيث قام " **ابن قنفذ** " أثناء زيارته بـ " **فاس** " بالوقوف على قبره سنة 759هـ[5] .

ويواصل " **ابن قنفذ** " الحديث عن " **أبي مدين** " ويقول أنّه درس على يد الأخيار والفضلاء وقرأ على الشّيخ الفقيه " **أبي حسن بن غالب** " فقيه " **فاس** " ثم انصرف " **أبو مدين** " إلى " **بجاية** " واستوطن بها، وكثرت تلامذته وكثرت بركاته ويقال خرج على يده مئة تلميذ وظهرت لكلّ واحد منهم الكرامة والبركة.

أمّا كراماته وأحواله الصّادقة كثيرة، وبلغ رحمة الله من الورع مقاما عاليا، له أشياخ مشاهير وإخوان جماهير وأصحاب جواهر وسيذكر لنا " **ابن قنفذ** " أثناء رحلته هذه بعض منهم قصد التّبرك بهم وقصد ذكر بعض شواهد الأحو

آخر زيارات ابن قنفذ لقبر أبي مدين الغوت:

وذلك حين عودته من رحلته من **المغرب** إلى **قسنطينة** وذلك سنة 776هـ، وفي هذه السنة كانت مجاعة عظيمة في **المغرب** زار " **ابن قنفذ** " **تلمسان** وأقام بها قرابة شهر، وقد كان وزيرها قد منع الخروج من **تلمسان** فلجأ إلى قبر الشّيخ **أبي مدين** وركع هناك ما قدر له ثم قرأ القرآن واستغفر وصلّى على النّبي الكريم وقال: " **يا سيدي يا أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد سند متصل قريب غير منفصل والغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال اللهم نتوسل إليك بأنبيائك وأوليائك يسر لنا في ذلك يا قريب يا سميع الدعاء يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام**"، وكرّر الدّعاء يوميا وصلّى على النّبي وحمد الله وانصرف فيسّر الله له ما طلب وارتحل بعد أيام يسرة وأتمّ سفره[6].

وأثناء زيارة " **ابن قنفذ القسنطيني** " لقبر " **أبي مدين التّلمساني** " قام بوصفه لنا حيث يروي في رحلته هذه أنّ بجواره زاوية وقريب منه جامع، ومدرسة للعلم وأنّ **العباد** منظر شريف وبقعة مباركة وطئها الصّالحون وسكنها المتعبدون.

وهكذا انتهت الرّحلة واكتمل كتاب " **ابن قنفذ** " في ذكر فضائل الشّيخ الصّالح الزّاهد القطب " **أبي مدين شعيب** " وأصحاب الولاية.

. **بنية الشّخصية للرّحلة القنفذية**

أما كلمة شخصية فإنّها لم ترد إلّا في العصر الحديث حيث جاء تعريفها في المعجم **الوسيط** كالتّالي: " **يدل في البداية على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه أثناء أداء الــدّور المسند إليه، ثم صار بعد ذلك يدل على الدور نفسه** "[7].

تحيل شخصيات الرّحلات إلى أشخاص حقيقيين يقومون بتجارب السّفر وحولهم يدور حكي الانتقال من مكان إلى آخر، وحكي التقاء العلماء، وحكي ما يطرح من قضايا أو تعليقات، وهكذا حينما ننتهي من قراءة الرّحلة تبقى لنا هذه الصورة لاسم العلم الذي قام بفعل الارتحال، فنتحدّث عنه كشخص من خلال رحلته.

إن الشّخصية تعيش الرّحيل مرتين مرة أثناء حركة الجسد، ومرة أثناء إعادة سرد رحلتها.

ومن المؤكد أنّ شخصية " **ابن قنفذ القسنطيني**" شخصية تاريخية ذات حياة مستقلة تملأ وجودها في النّص من خلال ما سجله التّاريخ عنها، ومن خلال ملفوظاتها داخل الرّحلة، كما أنّه يعتبر الرأس المدبر وذلك لأنّه هو القائل والفاعل والمستمع للعلماء، ومنشد للأشعار والمعلق على الأحداث والباحث والمحقق.

تتمتّع شخصية " **ابن قنفذ القسنطيني** " بكفاءة إبداعية عالية وبخاصة في الكتابة النّثرية مع جمال في الشّعر لا يغفل، ورحلته ذات تأثير في جمهورها المعاصر والأجيال التي بعده، وليس هذا وحسب بل الشخصية القنفذية تفوق في مجالات كثيرة.

وتتمثل سمات الشّخصية " **ابن قنفذ القسنطيني** " من خلال اهتمامه بالمعنى السليم للكلمة، إنّه يقوم بمراقبة الجو في الظروف العامة، يصور الأحداث التي رآها بصورة دقيقة وينقل أخبار " **أبي مدين** " وأصحابه بطريقة ملفتة للانتباه، إنّه شخصية واعية بالتّاريخ، تراقب ما يحدث بين الناس على مستوى طول الرّحلة في قوله مثلا عن " **ابن العاشر** " : " **إنّه فريد في الورع، كثير النّفور من النّاس وخصوصا أصحاب الولاية في الأعمال، وجعل علوم الدّين بين أعينه**"[8] .

يراقب " **ابن قنفذ** " مجموعة من النّاس ويسجل ما عليها ومالها وهو واع بتاريخ الأفكار والأفعال.

كما تساهم الشّخصية القنفذية في نقل الأخبار لنشر المعلومات وتحسيس القراء العامة بما يجري، فضريح " **أبي مدين** " : " **بجواره زاوية قريبة منه، وبجواره جامع للخطبة ومدرسة للعلم، العباد منظر شريف وبقعة مباركة وطئها الصالحون وسكنها المتعبدون**...

فالشّخصية تخبر بأوضاع وأماكن المناطق التي زارتها، كما تقوم بعرض كرامات الأولياء والصّالحين

كما تخبر بطريقة كل واحد من هؤلاء الأولياء و الصّالحين في التّعبد وطاعة الله.

فالشّخصية تدرك الوظيفة الإخبارية إدراكا جيدا حيث هي حريصة كلّ الحرص في تقديم سنة الميلاد والوفاة لأي شخص التقى به أو اجتلبه الحديث الذكر.

كما أنّ الشّخصية القنفذية شخصية متصوفة، تبحث عن الكمال الممكن في العلماء وتبحث أيضا عن الحقيقة المثلى، وفي هذا الإطار نجد الشّخصية متنامية على المستوى الملفوظ الرحلي يبدأ بزيارة قبر **عباس السبتي** المدفون **بمراكش** وما ظهر عنده من بركات في قضاء الحاجة، وهو من كبار الأولياء ومن عظماء الصّالحين.

ثم يطور البحث عن الحقيقة من خلال الأقوال والأفعال، وزيارة العلماء والأولياء والاستفادة من علمهم والتماس البركة منهم ويبدو أنّ أهل التّصوف في زمن **ابن قنفذ** اهتموا كثيرا بالكرامات والخوارق.

ومن بين الكرامات التي ذكرها **ابن قنفذ القسنطيني** أنّ **خالد بن الوليد**[9] " أنّه رآى خمرا فقال: " **ما هذا** " فقالوا له: "**خلا** " فقال **خالد بن الوليد**: " **اللّهم اجعله خلا** " فصار خلا ثم يخبرنا **ابن قنفذ** عن كرامة **ابن العاشر** حينما طلب **ابن قنفذ القسنطيني** منه طعاما فأحضر **ابن العاشر** تينا يابسا، فوضعه على يده اليمنى وغطّاه بيده اليسرى و قدّمه له فعجب الحاضرون من ليانته[10] .

فالشخصية لها وجود مستقل في إدراكها الحسّي و النّفسي و الذّهني، وتريد أن تخرج هذه الإدراكات من حيز الذّات إلى الآخرين ليستفيدوا منها، فهي تريد أن تؤثر في محيطها، إنّ السّارد ينحت شخصيته بالتّدريج من خلال مواقفها المتعدّدة و يعرضها من خلال هذه الإدراكات في وبخاصة في الكشف عن حياة **أبي مدين** وأصحابه و كراماتهم، فهي شخصيته تتّخذ أبعادا إنسانية واسعة الأفاق رحبة التّصورات و تعي ما في الأحداث المتعاقبة، و لاشك أنّها نظرة مثالية تصدر عن شخصية عالم باحث يتأمل في المسار الصّوفي و يختار النّقاط الدّالة، ليخرج للقراء صورة محكمة البناء.

وذلك من خلال ما قالته هذه الشّخصية عن **أبي حسن علي بن يوب**[11] حين لجأ إليه أحدهم يشكي عن وجع في بطنه فمسح بيده المباركة عليها وحرّك شفتيه فذهب الألم بقدرة الله و بركته.

ويتّضح لنا من خلال هذه الرّحلة أنّ **ابن قنفذ القسنطيني** أديبا مالك لزمام اللّغة المتصرف فيها، متذوق لأساليبها منتقي لألفاظها و ضعها في صورة و قالب حسن.

البنية المكانية للرّحلة القنفذية

يعتبر المكان أحد أبرز مكونات البنية الحكائية لأي عمل فنّي، فقد اختلفت تعريفاته الاصطلاحية حول مفهومه اختلافا بينا واضحا، فهناك من يرنو إليه على أنّه " **وسط غير محدود يشمل على الأشياء**"[12] و المكان عند **اعتدال عثمان** " **أنّه لا يقتصر على كونه أبعادا هندسية و حجوما و لكنه فضلا عن ذلك نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد الذهني المجرد**"[13].

في الحين يميز **عبد الملك مرتاض** بين المكان الحقيقي و المكان الأدبي، فالمكان الأدبي "**عالم بلا حدود و بحر دون ساحل، و ليل دون صباح و نهار دون مساء، إنه امتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات، و في كل الآفاق**"[14].

فالمكان في الرّحلة شبيه بالبناء، يتم بالتّدريج مرحلة فمرحلة حيث يصف الرّحالة رحلته، حين يعرض عرضا مرتبا، من ذكر للبناءات المعمارية الجميلة إلى مدن و قرى و طرقات فقبور و أضرحة...

وينتقل الرّحال من مكان لآخر معتمدا على الحواس في نقل ما يرى و " **المكان ليس حقيقة مجردة وإنما يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز وأسلوب تقديم الأشياء وهو الوصف** "[15]، لأنّ دراسة المكان معتمدة على الوصف من حيث الصّياغة وطرق التّقديم وكذلك من خلال التّنقل والحركة.

وفي الرّحلة القنفذية يتجلى الاحتفاء بالمكان لكون السّارد يهتم بالوصف، وبما أنّ **ابن قنفذ** قضى تقريبا عشرين سنة **بالمغرب** ذكر لنا مدن وقرى **المغرب** حيث بدأ بمدينة **فاس** وذكر أنّه التقى بالشّيخ من أحفاد **أبي يعزى** وزار ضريح **مولاي أبي يعزى** وكان يتجول في **فاس** من أجل ملاقاة رجال التّصوف وزيارة أضرحة الصّالحين والبحث عن أخبارهم وخصوصا من مكان له اتصال بـ **أبي مدين الغوت**.

وأثناء مكوثه **بفاس** حضر دروس **أبي محمد الهسكوري** بمسجد **البليدة** من مدينة **فاس**[16].

ومن بين الأماكن التي زارها **ابن قنفذ القسنطيني** مدينة **آسفي** حيث وقف على قبر **أبي محمد صالح** الصّوفي أحد الأقطاب الرّوحين في الحياة الصّوفية من خلال تجوله في المغرب الأقصى زار مدينة **سلا**، فقد دخلها مرارا فقصد وليها الشّهير **أبا العباس أحمد بن العاشر** حين أخذ عنه العلم وتبرّك به كان يزوره يوميا إلى أن لاق ربّه الشّيخ **ابن العاشر** بمدينة **سلا**[17].

ويذكر لنا **ابن قنفذ القسنطيني** أنّه أثناء زيارته لمدينة **سلا** التقى بأشياخ كثر نذكر منهم الشّيخ **أبي حسن علي بن يوب** الذي كان يشفي النّاس بقدرة الله وببركته، والشّيخ الصّالح **عبد العزيز الصّنهاجي** والشّيخ القصار والفقيه **ابن مصابح آكراسي** الذي يعتبر من كبار الفقهاء **بالمغرب**، وكذلك لقاؤه بالشّيخ **الحاج عبد الغني** " الذي كانت له زاوية بمقربة من الجامع الأعظم يأوي إليها الأخيار للعبادة "[18].

وسار **ابن قنفذ القسنطيني** ناحية **دكالة**، حيث كان يعقد كل سنة شبه مؤتمر صوفي يقصده كلّ منتمين لهذه الحركة قال **ابن قنفذ** بهذه المناسبة " **وكان الاجتماع في شهر ربيع الأول المبارك الأسعد سنة تسع وستين وسبعمائة وحضره من لا يحصى عدده من الفضلاء ولقيت هنالك من أخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم**"[19].

فبنية المكان تستقطب اهتمام السّارد، حيثما حلّ، فهو يمزج في ذلك بين السّرد والوصف لتجسيد المكان في ذاته، والإخبار بما جرى فيه من أحداث، وقد يقف واصفا ما آل إليه من مكان وهو ينقلنا من مكان إلى آخر، وكلّما تجدد المكان تجدّدت الأخبار والمناظر، فها هو **ابن قنفذ القسنطيني** لا يزال يتنقل بين المدن والقرى التي تعتبر عتبات بدخولها تفتح بابا واسعا للسّرد بصدد الوصف الشّامل لعلماء وشيوخ تلك المدن والقرى، ثم يضفي **ابن قنفذ القسنطيني** صفات الإعجاب بهم حين تبهره كراماتهم وتعاملهم مع النّاس، وفيما يلي ذكر بعض المدن والقرى التي وطأ بها **ابن قنفذ القسنطيني**: قسنطينة تلمسان مراكش كما زار **ابن قنفذ** الأمكان المقدّسة نذكر منها: جامع الصابرين ، مسجد المنزل بفاس مسجد القرويين وقصبة بقسنطينة

اهتم **ابن قنفذ** بقبور المشهورين في حياتهم فيزورها، ومن ذلك قبر الشيخ أبي محمد صالح " حيث وقف عليه **بآسفي** سنة ثلاث وستين وسبعمائة ورآى هنالك أحفاده "[20].

أمّا قبر الشّيخ **أبي مدين** فقد تفنّن في وصفه وأخذ هذا القبر حصة الأسد في التّكلم عنه وذكر محاسن وذلك من خلال قول السّارد: " **فقلت: وقبر الشّيخ أبي مدين، رضي الله عنه، بالعباد معهود مشهور، وحوض للزائريين رأيت من قبور الأولياء كثيرا... فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره وليس الخير كالعيان، والدّعاء عنده مستجاب** "[21].

ويواصل **ابن قنفذ** في وصف هذا الضريح المبارك يقول: " **وبجواره قبور كثيرة متزاحمة الالتماس ببركة الشّيخ أبي مدين رضي الله عنه وزاويته قريبة منه ... وبجواره جامع للخطبة ومدرسة للعلم، والعباد منظر شريف وبقعة مباركة وطئها الصالحون وسكنها المتعبدون** "[22].

وهكذا يمكن القول أنّ **ابن قنفذ القسنطيني** اهتم بأخبار المكان عبر الزّمان أكثر من اهتمامه بوصفه للعمران والبنايات، ولم يهتم بالجانب الهندسي بقدر ما اهتم بذكر الخصال الحميدة للشّيوخ الذين التقاهم أثناء رحلته هذه، وقد رأيناه يصف العلماء والشيوخ بكثافة ليشخص المكان، من غير قصور ولا نقصان ونستنتج أنّ وصف المكان يكون تشخيصا ودفعا للسّير والانتقال ومسرحا لعرض الأحداث، ويتّضح لنا من خلال هذه الرّحلة أنّ **ابن قنفذ** ضمّن ذكر أوصاف الشيوخ والعلماء ومدحهم أكثر من اعتنائه بوصف المناطق والأماكن التي زارها.

البنية الزّمانية للرّحلة القنفذية

يهتم أهل الأدب بالزّمن اهتماما بالغا، وكلّ ينظر إليه من الزاوية التي تساعده على أداء أهدافه حيث تختلف من دارس إلى آخر إلّا أنّهم يتّفقون جميعا على أنّ الأدب فن زمني

تبتدئ عام759هـ[23] حينما شدّ رحاله من **قسنطينة** إلى بلاد **المغرب**، و كان الهدف من وراء هذه الرّحلة أخذ العلم من علمائها و الالتقاء بشيوخها للتّبرك بهم و زيارة أضرحتها، و ابتدأ رحلته **أنس الفقير و عزّ الحقير** بـ " **فاس**" حيث التقى بأحفاد **أبي يعزى** عام (1) واحد و ستين و سبع مائة(761).

لم يكن الزمن ظاهرا بشكل واضحا في رحلته **أنس الفقير و عزّ الحقير** إلاّ أنّنا حاولت استدراج بعض الأزمنة التي وردت في هذه الرحلة على الشّكل الآتي:

- في سنة اثنان و ستين و سبعمائة(762) وقف على قبر **محمد صالح الصوفي** بمدينة **آسفي**.
- في سنة تسعة و ستين و سبعمائة قام **ابن قنفذ** بمؤتمر صوفي يقصده كلّ المنتمين لهذه الحركة بمدينة **دكالة**.
- في سنة سبعين وسبعمائة حضر **ابن قنفذ** دروس **أبي محمد المسكوري** بمسجد **البليدة بفاس**.
- وفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة قرّر الرّجوع إلى بلده **قسنطينة**، ومن ثم زار **العباد** ضريح **أبي مدين شعيب بتلمسان**.

كان **ابن قنفذ القسنطيني** يجمع مادته أثناء السفر، فيقيّد المشاهد، ويسجّل لقاءاته مع العلماء والمشايخ ويدوّن كراماتهم، وبعض من سيرهم الذّاتية كالمولد والوفاة، ثم قام بفعل التّنسيق بفعل هذه المراحل وأخرى، وما نلاحظه في هذه الرّحلة أنّ الزّمن كان مختفي بشكل لافت لأنّه توجد بعض الأحداث غير واضحة الزّمان.

وكتبت هذه الرحلة بعد فعل السفر والعبارة الدّالة على ذلك " **ورأيت منهم شيخا خارج مدينة سلا في المسجد منقطع بموضع يقال له العلاني لا أذكر الآن اسمه** ... "[24]، لأنّ الرّحلة لو كتبت أثناء فعل السّفر لكان **ابن قنفذ القسنطيني** يقول اسمه بعد لقائه مباشرة.

" **إنّ هذا تذبذب في السّرد بالقفز إلى الأمام وبالعودة إلى الوراء ليس من إبداعات السّرد المعاصر، وإنّما كان معروفا في السّرود القديمة** "[25]، وهذا ما نلحظه في الرّحلة هذه حين ينتقل بنا **ابن قنفذ القسنطيني** من زمن إلى آخر يقول : " **وأما قبر الشيخ أبي محمد صالح فقد وقفت عليه بآسفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة ورأيت هناك أحفاده** "[26] لينتقل بنا بعدها إلى الوراء لما ذكر لنا أنّه وقف على قبر الشّيخ **أبي زيد الهزميري** في قوله : " **وهكذا وقفت عليه بخط والدي رحمه الله في حدود سنة سبع وأربعين وسبعمائة وقبره يتبرك به** "[27].

في رحاب الرحلة الناصرية:

لقد امتاز العهد العثماني في المغرب الأوسط غلى نظيره –العهد الزياني – بظهور عدة رحلات وقّعها رواد العهد العثماني في الجزائر ومن بين رحلاته رحلة – أبو راس الناصري – والتي هي بعنوان – فتح الإله و منته – و المتلقي عند قراءته لهذه الرحلة الشائقة يعتقد إنها من أدب السير ، و لكن عند تمعن النظر فيها يستنبط أنها عبارة عن رحلة قام بها أبو راس الناصري و تحدث عنها بحذافيرها حيث سجل فيها ما يتعلق بمولده و نشأته ، وكذا تعلمه ثم رحلته و مجريات أحداثها و التفصيل في لقاءاته مع المشايخ و العلماء و الفقهاء ذاك العصر متطرقا للحديث عن النعم التي أنعمها الله عليه

أبو راس الناصري ما نلاحظه في رحلته هذه ان كانت منظمة و مرتبة ترتيبا لافت للنظر على غرار الرحلة القنفذية حيث قسم رحلته إلى أبواب[28] كالتالي:

الباب الأول جاء بعنوان في ابتداء أمري والذي تحدث فيه عن حياته الخاصة منذ نعومة أظافره من نسبه إلى غاية الأماكن التي عاش فيها وكذا السنوات التي مكث فيها وكيف داع صيته و اعتزازه بأجداده كما أدرج في هذا الباب الحديث عن معاناته في صغره لأنه تيتم و هو بأمس الحاجة الى والديه

أما الباب الثاني فهو بعنوان –ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة و حقيقة و قرآن و طريقة –فورد فيه الحديث عن شيوخه و عن الحلق التي حضرها عندهم ومدى استفادته منهم واسترسل في الحديث عن الفقهاء و العلماء الذين أخد جواهر الدراسة على أيديهم كما ذكر لنا إقرار هؤلاء المشايخ بمستواه الراقي و مدى تفوقه على بقية الطلبة

أما الباب الثالث سجله بعنوان– في رحلتي للمشرق و المغرب وغيرهما و لقاء علماء الأعلام و ما جرى لي معهم من مراجعة الكلام– فخصصه للحديث عما دار بينه وبين علماء و أمراء و فقهاء الذين التقى بهم عن محور مسائل العلم و الدراسة ، وهذا ما جعل –سميرة انساعد – تقول عن رحلة أبي راس الناصري "و الحق أن رحلة أبي راس الناصري تختلف عن الرحلات التي قام بها أصحابها بالمغرب الأوسط في عهده رغم كونها تتناول موضوع الرحلة الحجازية لغرض أداء فريضة الحج ، فهي تظهر علمية

أكثر منها دينية ، فكان المؤلف يهتم بالعلم و العلماء في المحل الاول "[29] فيتضح من كلام انساعد ان الحلة الناصرية فريدة من نوعها تستقطب الأنظار لدراستها و تحليلها وفي هذا الباب تحدث عن الأماكن التي زارها يضف إلى ذلك حديته عن الحواضر الإسلامية التي وطأ بها

وفي الباب الرابع فعنوانه في الأسئلة و ما يتعلق بها في معارضة العلماء و الأجوبة عن أشياء مختلفة وفيه تم الحديث عن المسائل التي طُرحت و تناقشت في مجالس العلم التي حضرها حلال رحلته هذه و من بين الألفاظ الواردة في هذا الباب *سئلت* *أجبت* وهذا دليل على صدق أشياخه في الثناء عليه و مدحه أي انه فعلا كان متفوقا

وفي الباب الخامس و الأخير بعنوان العجسد و الإبريز في عدة ما الفت بين البسيط و الوجيز ومنه تعرفنا على تآليف أبو راس الناصري فدون في هذا الباب تنوع الكتب و المصنفات التي أدرجها فلم يترك فن من الفنون إلا وألف فيه وقسمها في هذا الباب على حسب العلوم و التخصصات من قرآن و حديث و نحو و تاريخ وغيرها

نلمس من حلال هذه الإطلالة الوجيزة عن الرحلة الناصرية انه كان حكيما في السرد وابتعد كل البعد عن الخيال حيث دون هذه الرحلة بأسلوب علمي شاء قائما على المشاهدة بالعين المجردة و هذا ما اقر به معظم دارسين الرحلة الناصرية.

المفارقة بين الرحلة الناصرية و الرحلة القنفذية :

أوجه الاختلاف بين الرحلتين	أوجه الإتلاف بين الرحلتين
الرحلة الناصرية :الترتيب الزمني متسلسل ودقة الأحداث وحضور للنمطية الشخصية الرحلة القنفذية : إيقاف السرد عند نقطة ما و العودة إلى الوراء عند حادثة ما وقعت قبل نقطة الانطلاق على سبيل المثال حديثه عن أبي مدين غوث حيث يتحدث عنه قبل انطلاق الرحلة و أثناءها فيسترسل في الحديث عن الرحلة الرحلة الناصرية :افتخر الكاتب بتدريسه وهو لا يزال صغير الرحلة القنفذية :رغم أن الكاتب درس لم يذكر ذلك في رحلته الرحلة الناصرية :إقراره انه لا احد أكثر منه تأليف سوى الإمام السيوطي الرحلة القنفذية : رغم تأليفه العديدة إلا انه لم يذكر ذلك في رحلته	كلاهما يدرجان أدب السيرة في رحلتيهما كلاهما يلتقيان مع المشايخ و العلماء و الفقهاء كلاهما يهمهما العلم أكثر من أي شيء أخر كلاهما قلدوا رحالة سبقوهم في سرد رحلهم كلاهما تحدثا عن فتن مرت في المغرب الأوسط كلا هما من دراسات في الأدب الجزائري القديم كلاهما تحدثا عن مواضيع دينية كلاهما ذكرا أسباب هذه الرحلة كلاهما عبر فيهما صاحبيهما عن مختلجاتهم ومكبوتاتهم كلاهما تنوعت موضوعاتهما وذلك بتنوع معطيات حياته بمختلف مراحلها كلاهما عبرا على المستوى الذي وصلت إليه الحياة الثقافية آنذاك، ويدل ذلك غلى الثقافة الواسعة التي نلمسها عندهما، والتي مكنتهما من مضاهاة نظرائهما بالمشرق .

الرحلة الناصرية: طُرحت على الكاتب مجموعة من الاسئلة ليجيب عنها الرحلة القنفذية : لم يرد ذلك في رحلته الرحلة الناصرية : بعيد كل البعد عن الخيال في أسلوبه الرحلة القنفذية: أسلوب قوي محكم إلا انه تتخلله بعض الكرمات اللافتة للنظر الرحلة الناصرية: المنهجية في السرد أكثر دقة الرحلة القنفذية: المنهجية لم تكن أكثر دقة من الرحلة الناصرية نظرا للارتداد الزمني الرحلة الناصرية: من أول وهلة تبدو وكأنها السيرة الذاتية لصاحبها الرحلة القنفذية : من أول وهلة تبدو وكأنها سيرة ذاتية لأبي مدين و مجموعة من المشايخ الرحلة الناصرية : من بين أهداف الكاتب أداء مناسك الحج الرحلة القنفذية: لم يؤدي مناسك الحج لأنه جال المغرب فقط	كلاهما ألفا مؤلّفات التي شملت مختلف العلوم. كلاهما فتح الطريق أمام دراسات وقراءات أوسع لباحث راغب في البحث في مثل هذا الفن من الفنون الأدبية. كلاهما لديهما حب الإطلاع وإثراء الرصيد المعرفي لأدراك كل كبيرة وصغيرة عن ما يصادفهما أثناء الرحلة كلاهما يحملان عنوان ملفت للانتباه كلاهما يحتويان على قدرات سرد عالية بسبب نقل تجارب سردية في غاية الاثارة و المتعة كلاهما يزخران بطابع معرفي كثيف ومتكاثر كلاهما يمارسان عمل تأريخي و رسم حدود جغرافية كلاهما يمتلكان سمة الانفتاح و التنوع على مستوى الشكل و المحتوى

خاتمة: بعد جولة قدتها في رحاب هذه الدراسة استنبطت أنّها نتاج تراثي فريد من نوعه في إرث الأدب الجزائري القديم التي تحتوي على العديد من الأحداث والوقائع التي تسمح بتوسيع دائرة البحث والتّنقيب، ومن خلال دراسي هذه تجلّت النّتائج التّالية

- يتمتّع أدب الرحلة بقدرات سردية عالية بسبب نقله لتجارب سردية في غاية الإثارة والمتعة، هذه المفاصل الرحلة السردية التي أثبتت جدارة العربي في ميدان السّرد.
- أنّ الرّحلات إمّا تدون أثناء الرّحلة أو بعد اكتمال الصورة النّهائية للرّحلة.
- يزخر نص الرحلة بطابع معرفي كثيف ومتكاثر حيث يجمع في جوفه اللّساني كمّا هائلا من المعارف والموضوعات العلمية والأدبية وهذا ما استنبطته من زيارات **ابن قنفذ** للأولياء الصّالحين والتّحدث عن حياتهم وكذا ابو راس الناصري ومدى اهتمامه بالعلم و العلماء.
- يحاول النّص القنفذي ممارسة عمل صوفي باستدعائه للموروث الدّيني، أما النص الناصري يستدرج لنا أهم محطات حياته ليرسم من خلالها لوحات دينية و أخرى علمية وذلك بفضل نعمة الله التي أنعمها عليه

قائمة المصادر و المراجع

[2] – ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تصحيح: محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.ص7

[3] – الرحلة القنفذية، ص08

4– الرحلة القنفذية ، ص08.

[5] – الرحلة القنفذية ، ص11.

[6] – الرحلة القنفذية ، ص106

[7] – معجم اللغة العربية، معجم الوسيط، القاهرة، دار إحياء التراث، ط2، 1973، مادة شخص.

[8] – الرحلة القنفذية ، ص10.

[9] – الرحلة القنفذية ، ص09.

10[1]– الرحلة القنفذية ،ص11.

11[1] – الرحلة ص 85.

12[1] – ابراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، معجم اللغة العربية، القاهرة، 1983، ص191.

13[1]– اعتدال عثمان،اضاءة النص، دار الحداثة، بيروت،لبنان، 1988، ص5.

14[1]– عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون، الكويت،1998،ص57.

15[1] – سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة ثلاثية نجيب محفوظ، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة العامة للكتاب، دط، 1984، ص76.

16[1]– الرحلة القنفذية ، ص خ.

17[1] – الرحلة القنفذية ، ص خ.

18[1] – الرحلة القنفذية ، ص84.

19[1] – الرحلة القنفذية ، ص71.

[20]– الرحلة القنفذية ، ص61.

21[2] – الرحلة القنفذية ، ص104.

22[2] – الرحلة القنفذية ، ص106.

[23]– لم يذكره في رحلته هذه و إنّما استنتجه من خلال سيرته الذّاتية.

[24] – الرحلة القنفذية ، ص82.

25[2]– حسن نجمي، شعرية الفضاء، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2000، ص65.

[26] – الرحلة القنفذية ، ص61.

27[2]– الرحلة القنفذية ، ص89.

28[2]– محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح:محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، دت.

29[2]– سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الهجريين، (ق17-19م)،بحث في مضامين الخطاب الرّحلي وخصوصيات الأسلوب، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي،ط1، السنة 2011م ص 43